الجملة الفعلية في خطبة حجة الوداع
دراسة تركيبية دلالية

قنبر مصطفى أحمد : أستاذ مساعد
وزارة التعليم والتعليم العالي - دولة قطر

الملخص

في هذا البحث، حاولنا مقاربة إحدى خطب النبي صلى الله عليه وسلم ــ خطبة الوداع ــ بالوقوف على أشكال البنى التي اتخذتها الجملة الفعلية في حالاتها الثلاث: المثبتة والمؤكدة والمنفية، وعلاقة ذلك بالدلالات التي يمكن قراءتها في اللفظ والتركيب.

الكلمات المفتاحية: الجملة الفعلية؛ الإثبات؛ التوكيد؛ النفي؛ أشكال البنى؛ الدلالة.

Abstract

In this research we tried studying one Speeches of the Prophet (khutbat al wadae) with contemplate on the forms of the structures which The verbal sentence appeared in the Three cases: Affirmative, Negative, and the Emphasis. As well as the The relations with the forms and the meanings which are understood

توطئة

عُني دارسو السيرة النبوية العطرة بخطب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وكانت لخطبة الوداع مكانتها من البحث والدرس في مناحٍ كثيرة: فقهية، وعَقَدية، ولغوية، وأدبية، وتاريخية..؛ وما ذلك إلا لمكانة هذه الخطبة الشريفة بين خطب النبي صلى الله عليه وسلم.ولأنها آخر خطبه صلى الله عليه وسلم؛ فقد جمعت كثيرًا من أسس هذا الدين الخاتم التي تُصلِح الأفراد والمجتمعات في هذه الحياة.

ولاشك أنَّ التحليل اللغوي للنصوص من الأهمية بمكان في الكشف عن أغوار مكوناتها، وفهم مضامينها وما تفيض به من ظلال المعاني. ونحن أمام نص نبويّ له مكانته في ميراث النبوةالثرّ ـ يحتاج ممن يتصدى للبحث فيه ويشرُف به أنْ يشمرَ عن ساعديه لاستكناه أسرار التعابير في أقواله صلى الله عليه وسلم.

وقد وقع الاختيار على الجملة الفعلية في المستوى التركيبي من مستويات التحليل اللغوي، للوقوف على أشكال هذه الجملة ومكوناتها وعلاقة تلك البنى بالدلالة، وما أضافته للمضامين من معان تكشف عن بعد نظر المتكلم صلى الله عليه وسلم في إيصاله للمعاني التي قصد إليها في خطبته الجامعة، فضلا عن مراعاته لأحوال المتلقين.

نص الخطبة

"أيها الناس: اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً. أيها الناس: إنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وأن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. و قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، و كان مسترضعًا في بني ليث، فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أمَّا بعد ــ أيها الناس ــ فإن الشيطان قد يئس(من) أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إنَّ النسيء زيادة في الكفر يُضلّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن

الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس: فإن لكم علي نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح. فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا ـــ أيها الناس ـــ قولي فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا: أمراً بيناً كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه: تعلّمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه على طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم.اللهم هل بلغت. فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): اللهم اشهد." [1]

الجملة الفعلية ومكوناتها

الجملة الفعلية هي الجملة التي تبدأ بفعل وهو المسند، الذي لابد له من مسند إليه وهو الفاعل. فالفعل والفاعل هما ركنا الإسناد في الجملة الفعلية كما أن المبتدأ والخبر ركنا الإسناد في الجملة الاسمية.[2] ويسمى الفعل الذي يكتفي بفاعله لازمًا وقاصرًا وغير متعدٍ.[3] أما الفعل الذي لا يكتفي برفع فاعله فقط، وإنما يتعداه إلى نصب مفعول واحد أو أكثر فيسمى متعديا، يقول سيبويه:" هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول، وذلك قولك: ضرب عبد الله زيدًا، فعبد الله ارتفع هنا كما ارتفع في ذهب، وشغلت ضرب به كما شغلت به ذهب، وانتصب زيد، لأنه مفعول تعدى إليه فعل الفاعل." [4] ويسمى الفعل في هذه الحالة متعديًا وواقعًا ومجاوزًا.[5]

وقد وردت الجملة الفعلية بحالاتها الثلاث: المثبتة، والمؤكدة، والمنفية في الخطبة النبوية. وتنوعت أشكال البنى في كل حالة من حالاتها، ففضلا عن تنوع الأفعال التي تصدرتها ما بين الماضي والمضارع والأمر، فقد اعترى عناصر هذه الجمل بعض التقديم والتأخير وزيدت عليها عناصر أضافت أبعادًا دلالية إلى المضامين التي عبرت عنها، قصد إليها المتكلم صلى الله عليه وسلم.

أولا : الجملة الفعلية المثبتة

وردت في الخطبة الشريفة مجموعة من الجمل الفعلية المثبتة التي تصدرتها أفعال ماضية ومضارعة وقلة تصدرها أفعال الأمر. وقد تنوعت العناصر المكونة لهذه الجملة، وتنوعت مواقع هذه العناصر تقديمًا وتأخيرًا؛ مما أكسب المضامين التي حملتها هذه الجمل ثراءً في المعنى؛ جراء ما تفيض به من ظلال دلالية هدف إليها منشئ هذا النص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو ما استعنّا اللّهَ في بيانه في السطور الآتية:

أ- الجملة الفعلية ذات الفعل الماضي

وردت في الخطبة النبوية مجموعة من الجمل الفعلية المبدوءة بالفعل الماضي، أمكن للباحث تصنيفها في الأشكال الآتية:

الشكل الأول: فعل ماضٍ + فاعل (اسم ظاهر).

الشكل الثاني: فعل ماضٍ + فاعل (ضمير).

الشكل الثالث: فعل ماضٍ + فاعل (اسم ظاهر) + مفعول به (مصدر مؤول).

الشكل الرابع: فعل ماضٍ+ فاعل(ضمير)+مفعول به(اسم ظاهر)+جار ومجرور+مضاف إليه.

الشكل الخامس: فعل ماضٍ + فاعل(ضمير)+ مفعول به(ضمير)+ جار ومجرور+ مضاف إليه.

الشكل السادس: فعل ماضٍ + مفعول به (ضمير) + فاعل.

الشكل السابع: فعل ماضٍ + مفعول به (ضمير) + جار ومجرور.

الشكل الأول: فعل ماضٍ + فاعل (اسم ظاهر).

جاء على الشكل ثلاث جمل متوالية، الثانية مكررة، والثالثة مقابلة لما سبقها.

"ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله."

والجملتان الأولى والثانية من الجمل التي وردت في آية التوبة قال تعالى: " إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (37)" التوبة.

أما عن الأفعال التي تصدرت هذا الشكل، فهما فعلان متضادان: حرَّم، أحلَّ. وقد وظفّا في التركيب النبوي ليسهما في تشكيل بنية المقابلة بين الجملتين: يحلوا ما حرم الله، يحرموا ما أحل الله؛ الأمر الذي يكسب المعنى قوة التأثير حيث أضحى بارزًا وواضحًا، وهو ما يكون له أثر كبير على المتلقي، إذ تعد المقابلة من أهم الوسائل البلاغية للحجاج للاستمالة والتأثير؛ إذ هي تستميل وتؤثر بجمال استعمالها،

وقوة علاقتها التقابلية في المتلقي، ولذا عدت المقابلة وجهًا من وجوه البلاغة البرهانية البديعية التي تدعم طاقة القول الحجاجية وتزيد في قدرته الإقناعية.[6]

وقد وقعت الجمل الثلاث صلة للاسم الموصول (ما)، وجاءت الأفعال على صيغة الماضي مسندة إلى لفظ الجلالة دون أن تلحقها أي عناصر لغوية تعمل على توكيدها أو تقوية مضمونها؛ ذلك أنّ حالة الإسناد إلى الذات العلية تضفي على المضمون قوة وتأثيرًا لا تجعله في حاجة إلى التقوية أوالتوكيد من عناصر أخرى، فمَنْ حرّم ومن أحلّ هو العليم الخبير الذي يعلم ما ينفع عباده فيحله لهم، ويعلم ما يضرهم فيحرمه عليهم، ولا يحتاج الأمر هنا إلى جلب عناصر للتقوية أو التوكيد، هذا فضلا عن الثوب البديعي الذي اكتست به تلكم الجمل ـ كما بيّنّا ـ دعما لطاقة القول الشريف الحجاجية.

أما المفعول به في هذه الجمل، وهو الرابط في جملة الصلة فقد حُذف، وتقديره (ما حرمه)، أو (ما أحله الله). وحذف العائد المنصوب مفعولا به في جملة الصلة كثير في القرآن الكريم، يقول الباقولي: "وحذف العائد من الصلة إلى الموصول أكثر من أن أحصيه لك في التنزيل."، وقد أحصى عشرة مواضع في القرآن الكريم ذُكر فيها العائد ثم عقّب عليها بقوله: " فهذه مواضع، جاء فيها العوائد إلى الموصولات، وهي مفعولات، وأمكن حصرها، ولا يمكن حصر ما حذف لكثرته."[7] ولا ريب أن هذا الحذف للضمير يفهم منه الإطلاق، إذ في الذكر بعض التخصيص الذي يفهم مما يحيل إليه الضمير. وفي هذا الإطلاق ما يفيد بشاعة وعظم الجرم الذي اقترفه هؤلاء من قلب لموازين الحياة ونواميس الكون إذ عمدوا إلى أن يحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله.

الشكل الثاني: فعل ماضٍ + فاعل (ضمير)

ومثّله قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته: " فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع " حيث وقع الفعل الماضي فعلا للشرط في محل جزم بأداة الشرط (إنْ)، وقد جاء الفاعل المتمم لجملة الشرط ـ ضميرا ظاهرًا متصلا لجمع الغائبات (نون النسوة). ومنه كذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف".

وقد شكل هذا الضمير في الجمل السابقة واللاحقة مجموعة من العناصر الإحالية التي ارتبطت بعنصر إشاري مركزي متقدم هو العنصر الإشاري المعجمي (نسائكم) في بداية الفقرة الرابعة من الخطبة، في قوله صلى الله عليه وسلم " فإن لكم علي نسائكم حقًا " وهذا ما يطلق عليه في الدراسات النصية بالوحدة الإشارية

الرئيسية. ويكوّن هذا العنصر الإحالي مع مجموعة العناصر الأخرى في هذه الفقرة من نسيج هذا النص التي خصصها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم للوصايا بالنساء ــ في ارتباطها بالعنصر الإشاري المركزي ــ ما يطلق عليه مجموعة إحالية رئيسية.[8]

وقد حذف المفعول به في الجملة الأولى، ولم تتوسع الجملة الثانية بذكر الجار والمجرور الذي يتمم الفائدة من الفعل (انتهين) لمرام دلالية منها:

ــ كراهة ذكر المفعول به أو شيء من متعلقات الفعل، لاستهجانه[9] وتنفيرًا منه، وتحفيزا على اجتنابه.
ــ الإيجاز الذي لا يخل بالمعنى وهو من الملامح البلاغية في الأسلوب النبوي في الخطاب.
ــ وضوح المقصود من الفعلين بما يغني الحذف عن الذكر.
ــ الإطلاق وعدم التقييد أو التحديد متى لم يذكر المحذوف.
ــ التأثر ببلاغة القرآن الكريم، ومنه حذف المفعول به أو المتعلق بالفعل (فَعَلَ) في بعض السياقات لدلالة ما سبق عليه. فقد جاء ذلك في عديد من الآيات منها قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (279)" البقرة.[10] أما الفعل (انتهى) فقد ورد أربع مرات بصيغة الماضي دون ذكر أية متعلقات، كقوله تعالي: " وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193)" البقرة.

وعلى هذا الشكل أيضا جاء قوله صلى الله عليه وسلم في الفقرة الأولى من الخطبة: " أيها الناس: اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا... وقد بلغت"، وتكرر الشكل في نهاية الفقرة الرابعة التي تناولت وصاياه صلى الله عليه وسلم بالنساء: " فاعقلوا ــ أيها الناس ــ قولي، فإني قد بلغت"، وكذا في ختام خطبته حيث قال صلى الله عليه وسلم: " اللهم هل بلغت".

ولا اختلاف بين الجمل الثلاث سوى أن هذا الشكل جاء في جملة مُستأنفة مؤكدة بالأداة (قَدْ)، وفي الجملة الثانية وقع خبرًا لحرف التوكيد (إنَّ)، و جاء في أسلوب استفهام جوابًا للنداء في الجملة الثالثة. أما عن مكونات الشكل في الجمل الثلاث فإن الخطيب صلى الله عليه وسلم اكتفى بعنصري الجملة الفعل والفاعل لما في ذلك من الإيجاز، ووضوح المقصود للمتلقين فضلا عن الإطلاق الذي يجمع كل ما حوته المضامين التي قصد المرسل إيصالها إلى المتلقين.

ولعل في تكراره صلى الله عليه وسلم لهذا الشكل في بداية خطبته وفي الفقرة قبل الأخيرة وفي ختامها ما يفيد التأكيد على وصول الرسالة لكل المتلقين، ومن ثمّ التأكيد على أهمية المضامين التي سبقت هذا الشكل والتي تناولت التشديد على حرمة الدماء والأموال، ثم الوصايا والأحكام المتعلقة بالنساء، وفي نهاية الخطبة كان التأكيد على علاقة الأُخُوَّةِ التي تربط بين المسلمين، وما يترتب على ذلك من احترام الملكية الخاصة والنهي عن الظلم.

وقد سُبِقَ هذا الشكل في الجمل الثلاث بأساليب إنشائية قصد منها جذب انتباه المتلقين لأهمية ما سيُقال عقبها، وهي على الترتيب: "أيها الناس: اسمعوا قولي ..... وقد بلغت"، و "فاعقلوا ـــ أيها الناس ـــ قولي؛ فإني قد بلغت"، " اسمعوا قولي واعقلوه....اللهم هل بلغت."

وقد شكل ضمير المتكلم في الجمل الثلاث عناصر إحالية ارتبطت بعنصر إشاري مركزي هو الذات المتكلمة في هذا الخطاب وهو الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا يدل على حرص المرسل صلى الله عليه وسلم على إيصال الرسالة بنفسه للمتلقين وفهمها على الوجه الصحيح، وقيامه بمهمته التي أُبتعث من أجلها؛ وفي ذلك تبرئةٌ لنفسه صلى الله عليه وسلم من التقصير في مهمته إذ قام بالبلاغ والبيان والتوضيح دون إخفاء أوغموض؛ امتثالا لقوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67)" المائدة.

والوظيفة الإبلاغية التي أكد عليها الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبته ومن قبلها حددها القرآن الكريم مهمةً له صلى الله عليه وسلم، هي الغرض من إنشاء الخطبة الشريفة في هذا الموقف. وهذا يسبق بكثير ماجاء في كتابات العلماء المعنيين بالدراسات النصية، يقول كلاوس برينكر: يُفَّهم الباث المتلقي أنه يوفر له معرفة، وأنه يريد أن يبلغه شيئًا ما، ومن منظور مباشر يمكن أن يُؤشر إلى الوظيفة الإبلاغية للنص من خلال صياغات أدائية صريحة بالأفعال: أبلغ، أخبر، بلغ، افتتح .... [11] وهذا ما أكدَّ عليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في مفتتح خطبته وفي منتصفها وخاتمتها.

الشكل الثالث: فعل ماضٍ + فاعل (اسم ظاهر) + مفعول به (مصدر مؤول)

جاء هذا الشكل في قول الرسول صلى الله عليه وسلم " قضى الله أنه لا ربا، "حيث جاء الفاعل اسما ظاهرا هو لفظ الجلالة، وجاء المفعول به مصدرا مؤولا.

ويوحي الفعل (قضى) المسند إلى لفظ الجلالة بالحسم والبت النهائي؛ لأن القاضي هو الله قال تعالي: " مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29)" ق. ومن ثَمَّ فلا مجال للمراجعة بشأن الحكم، ولا استثناءات حوله، ولا مفر من تطبيقه؛ إذ ليس في ذلك ظلمًا للعباد؛ فمن قضى بذلك العليم الخبير بما يصلح لعباده وما يضرهم. كما ينبئ الفعل وفاعله عن أهمية وخطورة ما يحمله المفعول به، بل والتركيب بأكمله من قضية لها تأثيرها في مجتمع المتلقين الذي يعنيهم هذا البلاغ، إنها قضية اقتصادية اجتماعية، هي قضية التعامل بالربا. ويقوي من هذه الدلالات صورة المفعول به التي وقع تحت طائلة هذا الحكم، إذ جاء مصدرًا مؤولا مكوناته على النحو الآتي:

[أنَّ (حرف توكيد) + ـــه (اسم أنَّ/ ضمير الشأن) + لا ربا (خبره إنَّ: جملة اسمية مصدرة بلا النافية للجنس+ اسمها، وخبرها محذوف)]

أما عن انتقائه صلى الله عليه وسلم الهاء (ضمير الشأن) اسمًا للحرف الناسخ وهو ضمير مبهم جاءت جملة (لا ربـا) بعده لتفسره، فهذا من روائع الكلم النبوي المعجز. يقول العلامة الرضي: "والقصد بالإبهام ثم التفسير تعظيم الأمر وتفخيم الشأن، فعلى هذا لابد أن يكون مضمون

الجملة المفسِرة شيئًا عظيمًا يُعتنى به." [12] وفي ذلك أيضا يقول أستاذنا الدكتور سعيد بحيري إن: " المتكلم يقصد إلى توجيه نظر السامع إلى أنه يعدل عن استخدام السياق المألوف إلى سياق آخر يلائم طبيعة الخبر المنقول، ويكون الإبهام في الضمير دافعًا إلى إزالته بجملة لا تُستخدم إلا في مواضع التعظيم في الأغلب...إنه ربما قصد بوضع ضمير الشأن في مقدمة الجملة شدُّ الانتباه بالإبهام إلي ما يليه؛ رغبة في تعظيمه وتفخيم شأنه، أو أن يصبحَ ذهن السامع في غاية التنبُّه والترصُّد لما سيبيِّن الضمير وما يكشف عنه من غموض." [13] إن المعنى الذي حملته الجملة المفسرة لضمير الشأن هو التأكيد على تحريم أمر خطير، استحلاله يُدخل المرء في حرب مع الله، ويودي بالمجتمعات إلى التناحر والخراب الاقتصادي، وكم عانت ــ ولا تزال ــ شعوبٌ من الخراب والأزمات؛ إذ تتخذ منه عمادًا لأنشطتها المصرفية.

وقد جاءت هذه الجملة المفسرة (لا ربـا) تتقدمها لا النافية للجنس محذوفة الخبر، وهي في مجموعها لتأكيد النفي. [14] إذ هي أقوى في دلالتها على النفي أكثر من أدوات النفي الأخرى. والنفي بها قد يكون مطلق الزمن، أي: لا يقع على زمن معين. وإنما يراد منه مجرد نفي النسبة بين معموليها وسلب المعنى بغير تقييد بزمن

خاص. فهي إذن تنفى الحكم عن كل فرد من أفراد جنس الشيء الذي دخلت عليه نفيًا صريحًا وعامًا؛ وهذا مراد النحاة بقولهم في معناها: إنها تدل على نفى الحكم عن جنس اسمها نصًّا. أو إنها لاستغراق حكم النفي لجنس اسمها كله نصًّا. ويسمونها لذلك(لا النافية للجنس)، أي: التي قصد بها التنصيص على استغراق النفي لأفراد الجنس كله من غير ترك أحد. وقد يراد بها نفي المعنى في زمن معين حين تقوم قرينة كلامية أو غير كلامية تدل على نوع الزمن.[15]

إذنْ فالنفي في الجملة المفسرة (لا ربا) نفيا عاما وصريحًا إذ لم يقيده زمنٌ، وفي هذا تشديدٌ أكثر من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على خطورة على النوع من المعاملات لتأثيراته السلبية في المجتمعات، وأن في اجتنابه سلامة الفرد والمجتمع. أمَّا في حذف خبرها فإصرار آخر على التأكيد على النفي المطلق، ذاك أن في وجود خبرها نوع من التحديد أو التخصيص للمعنى الذي يراد من إسناده لاسمها وهو نفي اتصاف خبرها بجنس اسمها عن المعنى الذي يحمله هذا الخبر، وما دونه فهو مباح ولا يدخل ضمن دائرة النفي المقصود بهذا التحريم. وفي هذا المعنى (النفي المطلق) الذي يستفاد من حذف الخبر وعدم التقيد بزمن يلحق بالجملة ـــ إغلاقٌ لكافة المنافذ أو الحيل أو الأشكال التي قد يتزيَّاها أنصار هذا النوع من المعاملات لينفذ إلى اقتصاديات المجتمعات المسلمة قصد الإفساد وإحداث الضرر والخسائر المادية والمعنوية.

وتزداد درجة التقوية لهذا التعبير الشريف صعودًا حين يدخل هذا كله ضمن دائرة أوسع هي دائرة توكيد الحرف الناسخ (أنَّ) الذي تصدَّر جملة وقع عليها فعلٌ لا يمكن إلا الانصياع له والامتثال لأمر فاعله، لصدوره من الشارع الحكيم جلَّ وعلا، وهي قوله صلى الله عليه وسلم (قَضَى اللهُ).

الشكل الرابع: فعل ماض+ فاعل(ضمير)+مفعول به(اسم ظاهر)+جار ومجرور+ مضاف إليه

جاء هذا الشكل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: " واستحللتم فروجهن بكلمات الله"، وقد عُطفت هذه الجملة على سابقتهاوهي قوله صلى الله عليه وسلم: "وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله." التي تصدَّرتها من عناصر التقوية على الترتيب: إنَّ + إنَّما؛ وبذا فقد اقتسمت الجملتان ما وقع عليهما من درجات التقوية ــ وإن كان للأولى بعض التميز لمجيئها أولا ــ إثر وقوعهما بعد حرفي التوكيد.

وفي انتقاء الفعل (استحلل) تعبيرٌ عن نوع العلاقة التي ربطت بين المرأة والرجل؛ الأمر الذي يترتب عليه الكثير من الحقوق التي أوجبها الشارع الحكيم على الفاعل

هنا (التاء التي تعود على المخاطبين). لكنْ هذا يعود بالقضية إلى سيرتها الأولي إذ إنَّ من أحل هؤلاء النساء هو الشارع جلت حكمته، وبكلماته التي نزلت في كتابه، فأن يسند الفعل إلى جماعة المتلقين بضمير الخطاب؛ ففي ذلك تعبير صريح عن تحمل المسؤولية الكاملة من طرف جماعة الرجال.

وفي مجيء المفعول به اسمًا صريحًا (فروجهن) ما يفيد تحديد ما جرى عليه الاستحلال، ويمكن أن يؤول التعبير بهذا الاسم على وجه الحقيقية وذلك استنادًا إلى قوله تعالي ثناءً على المؤمنين: " وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6)" المؤمنون. وقد يكون المقصود كامل جسد المرأة والتعبير هنا يكون على سبيل المجاز المرسل ذي العلاقة الجزئية إذ عبر بالجزء وأراد الكل، فما أُستحلّ ليس الفرج فقط بل المرأة كاملة، وقد عبر بالفرج هنا لبيان نوع العلاقة الخاصة التي لا تحل بين الرجل والمرأة إلا بالنكاح، وما يترتب عليها من معاشرة تنتج ذرية تقر بها الأعين من البنين والبنات.

أما الجار المجرور المضاف إلى لفظ الجلالة (بكلمات الله) فهو بيان لسبب وقوع الفعل، فالباء أفاد دخولها على الاسم معنى السببية، فكلمات الله كانت سببًا في أن تصير المرأة حلالا للرجل. وليس معنى الاستعانة في(الباء) أيضًا ببعيد، حيث الفعل لا يأتي على الوجه الأكمل إلا بها.[16] وفي المقصود بـ (كلمات الله) أربعة أقوال: الأول: أن المراد بكلمة الله أمره وحُكْمه وإباحته المنزلة في كتابه، وهو قوله {فانكحوا ما طاب لكم من النساء}النساء:4. قال النووي: هذا هو الصحيح، ورجحه القرطبي في المفهم إذ قال: فإن حُكْمَ الله كلامه المتوجه للمحكوم عليه على جهة الاقتضاء أو التخيير. الثاني: المراد كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله، إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم. الثالث: المراد كلمة النكاح التي يُستحل بها الفروج، أي الصيغ التي ينعقد بها النكاح من الإيجاب والقبول لأن الله تعالى أمر بها. الرابع: أن المراد قوله تعالى: {فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان} آل عمران: 229. قال الخطابي: هذا أحسن الوجوه.[17]

وقد جاءت هذا الجملة تعليلا للإنشاءِ الطلبي الذي جاء على صورة الأمرِ، والذي تصدر الجزء الثاني من الفقرة التي جاءت للوصايا بالنساء، وهي قوله صلى الله عليه وسلم: "واستوصوا بالنساء خيرًا." وبذا يكون قد تحقق في هذا الجزء من النص التماسك بين مكوناته على مستوى السبك النحوي، والحبك الدلالي.[18]

الشكل الخامس: فعل ماضٍ+ فاعل(ضمير)+ مفعول به(ضمير)+جار ومجرور+ مضاف إليه

ورد هذا الشكل في قوله صلى الله عليه وسلم: "وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله."وقد تصدر هذه الجملة أداتا توكيد كما سبق أن بيّنا. ولم تختلف عناصر هذا الشكل عن الشكل السابق إلا في نوعية المفعول به الذي جاء هنا ضميرا متصلا بينما كان اسما ظاهرًا في الشكل السابق.

ولا يحتاج المتلقي إلى جهد كبير في فهم العناصر الإشارية التي تحيل إليها الضمائر المتصلة في الفعل، إذ المخاطبون الحاضرون وكل من تبلغه رسالة الإسلام حتى قيام الساعة هم الذين يحيل إليه الضمير (تاء الخطاب) المضافة إلى ميم الجمع (تُم) الواقع فاعلا. والنساء في الجملة المتقدمة (واستوصوا بالنساء خيرًا) هو العنصر الإشاري الثاني الذي يحيل إليه ضمير الغائب المتصل لجماعة النسوة (هُنّ) التي جاء مفعولا به.

أما عن الجار والمجرور والمضاف إليه الذي تعلق بالفعل فقد أشار النووي أنه ورد في كثير من الأصول بدون تاء (بأمان الله) [19] أي بعهده وهو ما عهد إليكم فيهن، أما المعنى عند وجود التاء فيعنى أن الله ائتمنكم عليهن فيجب حفظ الأمانة وصيانتها بمراعاة حقوقها والقيام بمصالحها الدينية والدنيوية. ويميل المباركفوري إلي ما أشار إليه النووي معللا ذلك بقوله: أن في قوله (أخذتموهن) دلالة على أنها كالأسيرة المحبوسة عند زوجها، وله التصرف فيها والسلطنة عليها حسبما بيّنه الشرع، ويوافقه قوله في رواية أخرى (فإنهن عوان عندكم) جمع عانية وهي الأسيرة، لكنها ليست أسيرة خائفة كغيرها من الأسراء بل هي أسيرة آمنة. [20]

وقد ارتبط هذا الشكل بما قبله كما رأينا في الشكل السابق، فجاء تعليلا للأمر النبوي الأول "واستوصوا بالنساء خيرًا."فضلا عن التماسك النصي الذي ظهر على المستويين التركيبي والدلالي كما تحقق في الشكل السابق.

الشكل السادس: فعل ماضٍ + مفعول به (ضمير) + فاعل.

مثّل هذا الشكل قوله صلى الله عليه وسلم عن ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب: " .... قتلته هذيل." وقد اختلفت هذه الجملة عن سابقاتها، إذ قصد منشئ الخطبة صلى الله عليه وسلم إلى تأخير الفاعل، وتقديم المفعول به. وهذا مما أوجبه النحاة إذا جاءت عناصر التركيب اللغوي على هذا النحو. [21]

أما عن علة التعبير عن المفعول به ضميرًا متقدمًا، وتأخير الفاعل وإظهاره، ففضلا عن العلة النحوية، هناك من النكات الدلالية التي لا تخفى إذ إنّ إضمار

المفعول به في هذا الموضع تعبير عن وضوح وبيان ما يعود إليه في أذهان المتلقين، وقد وَضَحَ في السياق بمحددين اسمه:(ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب)، صفته: (كان مسترضعًا في بني ليث)، ومن ثمَّ فإن الإظهار هنا بدل الإضمار يصم التركيب بالركاكة، وحاشا للبيان النبوي أن يُرمى بذلك.

وفي مقابل ذلك جاء إظهار الفاعل للتصريح والبيان والتحديد، وجاء متأخرًا لعدم الاهتمام به من جهتين: الأولى: أن واقعة القتل هنا جاءت بشكل غير متعمد لطفل في عمر الرضاع، كما فُهم من قوله صلى الله عليه وسلم: (وكان مسترضعًا في بني ليث)، قال النووي: هَذَا الِابْنِ إِيَاسُ بْنَ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَقِيلَ اسْمُهُ حَارِثَةُ، وَقِيلَ آدَمُ. قَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: وَهُوَ تَصْحِيفٌ، وَقِيلَ: اسْمُهُ تَمَّامٌ وَمِمَّنْ سَمَّاهُ آدَمُ الزُّبَيْرُ. وَكَانَ هَذَا الِابْنُ الْمَقْتُولُ طِفْلًا صَغِيرًا يَحْبُو بَيْنَ الْبُيُوتِ فَأَصَابَهُ حَجَرٌ فِي حَرْبٍ كَانَتْ بَيْنَ بَنِي سَعْدٍ وَبَنِي لَيْثِ بْنِ بَكْرٍ.[22] ومن ثم فلا حاجة لتقديمه بما قد يوحي بإعطاء هذه الحادثة مزيدًا من الاهتمام.

والثانية: أن الواقعة كانت في الجاهلية، وكل دمٍ في الجاهلية موضوع، كما بلّغ صلى الله عليه وسلم في ذات الخطبة: (و قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم في الجاهلية موضوع) ومن ثم فتأخيره عن رتبته في الكلام مقصود به الضرب صفحًا عن هذه الواقعة وأمثالها من دماء الجاهلية.

الشكل السابع: فعل ماضٍ + مفعول به (ضمير) + جار ومجرور

جاء هذا الشكل في قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: " فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى مَن ائتمنه عليها." وقد وقع هذا الشكل جملة صلة للاسم الموصول (مَنْ) وجاء المفعول به ضميرًا متصلا بالفعل، وخلا الشكل من الفاعل الظاهر، وقد أعقب الفعلَ ومفعولَهُ شبهُ جملة: جار

ومجرور(عليها).والحذف في جملة الصلة من أساليب القرآن كما سبق بيانه، وإذا كانفي الذكر نوع من التخصيص والتحديد ففي الحذف نوع من الإطلاق والتوسع، إذ يتسع الأمر النبوي بأداء الأمانة إلى أصحابها دون النظر إلى كنه هؤلاء عقيدةً أوجنسًا أوعرقًا أولونًا. أمَّا التوسع في بنية الجملة بختمها بجار ومجرور فقد أكمل الأركان التي تتشكل منها منظومة المعاملات الخاصة بالأمانة هنا: المؤتمِن، المؤتمَن، الأمانة.

وفي الفعل (ائتمنه) من المعاني ما يجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالأداء بعد أمر الله بها في القرآن، فالفعل يحمل معنيين الثاني مسبب عن الأول كما

جاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم: وثق به، وجعله حافظًا للأمانة.(23) ولا شك أن الدلالات في هذا الفعل لها مردودات على الصعيد النفسي والاجتماعي، ففي حمل الأمانة والقيام بواجباتها من الحفظ ثم الأداء ما يقوّي الثقة ويدعمها بين أفراد المجتمع ويقي المجتمع من أمراض تفتك بوحدته وتماسكه كالطمع والاختلاس والأثرة. كما أن القيام بواجبات الأمانة تُقدِّم للآخر غير المسلم صورة من صور المعاملات بين الناس سواء أكان جُلهم على عقيدة التوحيد أم لا؛ ليرى البعد الحضاري الذي يميز المعاملات في هذا المجتمع من غيره؛ إثر التطبيق العملي للأوامر الإلهية في القرآن الكريم، والنبوية في الحديث الشريف، وأنهم ليسوا كسابقيهم الذين قال الله فيهم: "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46)" النساء.

ب ـ الجملة الفعلية المثبتة ذات الفعل المضارع

لم تختلف أشكال الجملة الفعلية المثبتة ذات الفعل المضارع كثيرا عن سابقتها التي تصدرها الفعل الماضي. ولم يختلف العلماء على إفادة التجدد والاستمرار في الجملة التي يتصدرها الفعل المضارع أو إفادة الحدوث في المستقبل متى سبق الفعل بحرف السين أو سوف.[24]

وقد جاءت في خطبة الوداع مجموعة من هذه الجمل صنفت في الأشكال الآتية:

ـ الشكل الأول: فعل مضارع + فاعل (ضمير) + جار ومجرور.

ـ الشكل الثاني: فعل مضارع + فاعل (ضمير) + مفعول به(اسم ظاهر).

ـ الشكل الثالث: فعل مضارع + فاعل (ضمير) + مفعول به (ضمير).

ـ الشكل الرابع: فعل مضارع + نائب فاعل.

الشكل الأول: فعل مضارع + فاعل(ضمير) + جار ومجرور

على هذا الشكل جاءت الجملتين الآتيتين: " فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية."،و " إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم". أما عن الجملة الأولى فقد عبرت مع العناصر التي سبقتها عن تأكيد لتطبيق عملي اتخذه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وهو إسقاط دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب؛ تنفيذًا لقراره في الجملة التي قبلها وهو قوله صلى

اللّه عليه وسلم "... وأن كل دم في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعًا في بني ليث، فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية."

وكان اختيار الفعل المضارع هنا له واجهته من حيث الدلالة التي تفهم من السياق حيث التعبير عن الحدث في زمانه ومكانه المعهودين، والتطبيق العملي الذي يُرجى منه القدوة والأسوة. ناهيك عن نقل الصورة التي تتعدى حواجز المكان والزمان لكل متلقٍ. وجاء الجار والمجرور المتعلق بالفعل ليكمل الصورة التي عبرت عن هذا التطبيق، ولم يكن ذلك تكرارًا مُملا لمعانٍ سبق التأكيد عليها (إسقاط دماء الجاهلية)، ومن ثَّم فيمكن حذفه فلا حاجة للمتلقي به، لأنه قد جاء في مكانه تأكيدًا على الدلالات السابقة، حيث إنَّ مسألة الدماء في العقل الجمعي الجاهلي لها نصيبها من التجذر والرسوخ ما يجعل أمر انتزاعها ليس بالشيء الهين.

أمَّا عن الجملة الثانية فقد جاءت صلة للاسم الموصول ما، وقد اتصل بالفعل فاعله الذي جاء ضميرًا متصلا لجماعة الذكور (واو الجماعة) "مما تحقرون من أعمالكم" وقد وقعت هذه الجملة في نطاق جملة جواب النداء التي يحذر من غواية الشيطان "أمَّا بعد ــ أيها الناس ــ فإن الشيطان ... " ولذا كان ضمير الجماعة المتصل بالفعل يحيل إلى عنصر إشاري سابق وهو الاسم الذي وقع منادىً كما رأينا.

وقد كان تخير الفعل (تحقرون) دقيقًا في موضعه، فهو مع إسناده إلي واو الجماعة يكشف عن تواضع جماعة المسلمين على النظر إلى بعض الأعمال بحقارة وعدم الالتفات لآثارها؛ لكنها بهذه الصفة قد تكون مدخلا لا يستهان به من مداخل الشيطان اللعين للفساد والإفساد. وجاء الجار والمجرور (من أعمالكم) ليبيِّن أن هذا الفعل تختص به بعض الأعمال، بما يفيد أن النظرة إلى بعض الأعمال ـ ولو كانت قليلة ـ بالمهانة والحقارة شيءٌ لابد أن تحذره جماعة المتلقين من المؤمنين. وفي هذا ما يدل على العناية الكبيرة والحرص الشديد من جانب صاحب هذا الخطاب ــ صلى اللّه عليه وسلم ــ على إرشاد أمته وبيان دقائق الأمور التي قد تخفي على كثير منهم.

الشكل الثاني: فعل مضارع + فاعل (ضمير) + مفعول به (اسم ظاهر)

جاءت على هذا الشكل مجموعة من الجمل اتفقت عناصرها خاصة في العنصرين الأخيرين. ففي ثلاث جمل جاء الفاعل ضميرًا متصلا معبرًا عن جماعة المخاطبين، بينما جاء المفعول به اسمًا ظاهرًا مضافًا: "إنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم."، و "إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم."، و"ليواطئوا عدة ما حرم اللّه."

وقد وقعت الجملة الأولى مصدرًا مؤولا في محل جر بـ (إلى) بما يفيد أن الحكم بحرمة الدماء والأموال على سبيل التأبيد، أما الجملة الثانية فقد جاءت لتعبر عن المستقبل القريب؛[25] لدخول السين على فعلها بما يفيد استشعار المخاطبين لقرب لقاء الله جل وعلا، وأهمية أن ينظر المخاطب في أعماله لأنه سيحاسب عليها قريبًا، ومما يؤكد هذه المعاني وقوع هذه الجملة في سياق الخبر المؤكد للأداة (إنَّ).وقد جاء المفعول به في الجملتين اسما ظاهرًا (ربكم) الذي يفيد عظمة اللقاء ورهبته؛ مما يستلزم خطورة الأعمال التي سيلقى العبد عليها ربه، وجلال الموقف الذي سيكون فيه العبد مسؤولا.

أما الجملة الثالثة فقد جاءت في سياق التعليل لجملة سابقة عليها، تلك التي تعبر عن مسلك الكفار في مسألة النسيء: "إنَّ النسيء زيادة في الكفر يُضلّ به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله" وهو ما قامت بهذا الدور (لام التعليل) التي تصدرت هذه الجملة، وقد كشفت بذلك عن المرامي الخبيثة لأصحاب النسيء من الكفار.

الشكل الثالث: فعل مضارع + فاعل (ضمير) + مفعول به (ضمير)

وردت على هذا الشكل خمس جمل هي: " يُضلّ به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا."، "لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه."، " فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع."، "وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم."، " فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.".

والملاحظ في الجمل السابقة أن اثنتين منها كان الفاعل فيها ضميرًا مستترًا بينما البقية كان الفاعل فيها ظاهرا متصلا، وقد تنوعت العناصر الإشارية للضمائر في الجمل الخمس ما بين القريب والبعيد، وعليه تنوعت العناصر الإحالية غير أنها كانت جميعها متصلة بالفعل. ولا يخفى ما يصيب الجمل من الركاكة إن حلت العناصر الإشارية محل العناصر الإحالية فيها.

وقد تنوعت المواقع الوظيفية لهذه الجمل ما بين الحال، والصفة، والمفعول به، والعطف، وجواب الشرط. ولعل في عطف الجملة الرابعة بالفاء ما يبعث على الوجل من اللقاء والسؤال؛ لما تفيده الفاء من قصر الفترة بين اللقاء والسؤال في حضرة الذات العلية. وجاءت الفاء وتلتها لام الأمر في الجملة الأخيرة لما في ذلك من عِظَم شأن الأمانة والتشديد على التعجيل في أدائها إلى صاحبها وعدم تأخيرها عن وقتها.

أما الجملة التي وقعت في محل نصب مفعولا به، فهي من المصدر المؤول الذي تقدمته الناصبة أنْ (أن تهجروهن)، وفي تخير المصدر المؤول دون المصدر الصريح مجموعة من الأغراض ذكرها أحد الباحثين المعاصرين منها:

1ـ الإخبار عن الحدث مع الدّلالة على الزمان. ويَعني ذلك القول بواضح العبارة أنّ المصدر المؤول، إنما كان هكذا ليُفيد ـ إلى جانب الحدَث ـ الدّلالةَ على الزمان، وهذا ما لا يتحقق بوجود المصدر الصريح.

2ـ الإخبار عن الفاعل.

3ـ أن يُفهم منه الحدث دون عارضٍ من عوارضه المتصورة.

4ـ أن يدلُّ على إمكانية حدوث الفعل، دون الوجوب والاستحالة.

5ـ تقْوية المعنى، وتوكيد مضمونه وتثْبيته.[26]

وعلى هذا فإذْنُ اللّهِ بالهجر في المضاجع لا تهاون فيه، كأسلوب من أساليب العلاج فيما ينشأ من شقاق بين طرفي الأسرة المسلمة، إذ في ذلك القول من المرسل صلى الله عليه وسلم نوع من التقوية والتثبيت، بحث لا يتعاداه الرجل إلى غيره الأقسى وهو الضرب إلا بحقه.

الشكل الرابع: فعل مضارع + نائب فاعل

ثلاث من الجمل جاءت على هذا الشكل في هذه الخطبة، هي قوله صلى الله عليه وسلم: " يُضلّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عامًا."، " إنْ يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضي..."، " قد يئس (من) أن يُعبَد بأرضكم هذه أبداً ".

وفي الجمل السابقة نستطيع الوقوف على كثير من علل العدول عن البناء للمعلوم إلى البناء للمجهول. ففي الجملة الأولي يمكن القول إن علة البناء للمجهول لأغراض منها: كون فاعل الإضلال معروفًا؛ ومن ثم فلا حاجة لذكره، وكونه معلومًا ففي تجاهله وعدم التصريح به تحقيرًا لشأنه، إضافة إلى ما في ذلك من إبراز للجرم (فعل الإضلال) ولفت الانتباه إليه، والتركيز على هؤلاء الذين استحقوا أن يقعوا تحت طائلة هذا الضلال بكفرهم ثم بصنيعهم في التحليل والتحريم.

ولا تختلف الجملة الثانية عن سابقتها في علة البناء للمجهول، إلا أن نائب الفاعل هنا جاء ضميرًا مستترًا يحيل إلى عنصر إشاري متقدم هو الاسم الظاهر (الشيطان)، وفي الإضمار ما يحمي الجملة من الركاكة أو يحيد بها جانبًا عن الفصاحة المعهودة في مألوف اللسان العربي، إضافة إلى معاني التحقير التي تلحق بهذا اللعين. وفي الجملة الثالثة مالا يختلف عن سابقتيها فقد أضمر نائب الفاعل الذي يحيل على ذات العنصر

المتقدم في الجملة السابقة. ناهيك عن جعل بؤرة التركيز على فداحة الفعلين (يُطَعْ، يُعْبَدِ) في التركيب لما فيهما من انحراف بالعبد عن جادة الصواب.

وقد احتلت الجمل الثلاث مواقع وظيفية مكنتها من أداء عدة معان في نطاق الجملة الكبرى، فالجملة الأولى كانت حالا من اسم إن المتقدم " إنَّ النسيء زيادة في الكفر يُضلّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً" ليزيد من بشاعة هذا الجرم ففضلا عن أنه زيادة في الكفر فهو إضلالٌ للكافرين.أما الجملة الثانية فقد وقعت فعلا لشرط جازم في نطاق جملة شرطية وقعت خبرًا لحرف الاستدراك (لكنَّ) "لكنَّهُ إن يطع فيما سوى" لتُكمل مع هذا الحرف وما تلاه الصورة الأخرى للشيطان الذي باء بالهزيمة والخسران ومع ذلك يترقب مداخل أخرى للإيقاع بمنْ يقدر عليه.

وجاء الفعل في الجملة الأخيرة منصوبًا لان سباكه مع الناصبة (أنْ) ليقع مفعولا به للفعل (يئس) أو في محل جر بعد (مِنْ)في رواية أخرى؛ ليعبر التركيب عما آل إليه أمر اللعين (إبليس) من نفس محبطة ومنقطعة الأمل مِن جراء تفلت مَنْ كانوا في غوايته وتحت تأثيره.

ج ـ الجملة الفعلية ذات الفعل الأمر

مثلت الجملة الفعلية ذات الفعل الأمر المرتبة الثالثة من الجمل الفعلية في هذه الخطبة، وقد جاءت في السياقات الآتية:

ـــ أيها الناس: اسمعوا قولي.

ـ أيها الناس: أيها الناس ..... إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

ـ اللهم اشهد.

ـ أما بعد أيها الناس.... واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان.

ـ فاعقلوا ـــ أيها الناس ـــ قولي.

ـ أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه.

وقد اتفقت جميع الجمل في الفاعل المقصود من الخطاب إذ جاء ضميرًا متصلا دالا على جماعة الذكور، عدا واحدة جاء الفاعل فيها ضميرا مستترًا عائدًا على الذات العلية وهي قوله صلى الله عليه وسلم: " اللهم اشهد."، ولم تختلف العناصر الإشارية التي تحيل إليها الضمائر في هذه الجملة عن سابقاتها بين عنصر قريب وآخر بعيد. ولا ريب أن صيغ الأمر هنا ذات غرض حقيقي هو الامتثال والطاعة. عدا الدعاء في قوله صلى الله عليه وسلم " اللهم اشهد."، الذي يقصد منه إبراء ذمة منشئ الخطاب

من حقوق المخاطبين التي تتمثل في البلاغ وتقديم النصح والإرشاد. وفي ذلك إشعار بعظم المضامين التي حملتها كل التراكيب في هذه الخطبة الشريفة.

أما عن المواقع الوظيفية لهذه الجملة فقد جاءت عقب نداء التنبيه وجذب المتلقي في الجملة الأولى والثالثة والأخيرة، وفي سياق جواب نداء التنبيه وتعليلا لما قبلها جاء الأمر في الجملة الثانية. وفي سياق جواب النداء والتنبيه جاء الأمر بالوصية بالنساء في الجملة الرابعة. أما الجملة الخامسة فرغم أنها جاءت في سياق جواب النداء والتنبيه أيضًا والذي تصدر الفقرة الخاصة بوصايا النساء في الخطبة إلا أنَّ هذا النداء عاد ليتوسط بين عنصرين من عناصر الجملة بين الفاعل وبين المفعول. وهذا يلقي بكم كبير من العناية والاهتمام للمضمون الذي حملته هذه الجملة دون غيرها. إذ في قوله صلى الله عليه وسلم: (... فاعقلوا أيها الناس ـــ قولي) دعوة صريحة، بل أمرٌ لكل من بلغته هذه الخطبة بالفهم والإدراك والتمييز وإدراك حقائق الأشياء.[27]

ونلمح هنا بعدًا بيانيًا اتصاليًّا تجلّى في هذا الأمر بالسمع وتكراره وعطف اعقلوا على اسمعوا، إذ مدار الرسالة الإبلاغية ونجاحها هنا وجني ثمارها منوط بموقف المتلقين من حيث الفهم والإدراك والتمييز للمضامين التي حملتها التراكيب في هذه الخطبة الشريفة. إنَّ نجاح أيِّ رسالة يرتبط بمدى الجهد الذي يبذل في صياغة مضامينها، ثم تخير الوسائل المناسبة التي تعين على إيصالها ناهيك عن انتقاء الزمان والمكان المناسبين لها. وأرى أن المرسل صلى الله عليه وسلم قد قام بذلك على أحسن وجه، وبقي تفاعل المتلقين الذي هو منوط بهم، إلا أن حرصه صلى الله عليه وسلم على أمته جعله يؤكد على هذا التفاعل وأهميته من خلال مجموعة الأساليب الإنشائية من نداء وأمر التي انتشرت في كثير من فقرات خطبته الشريفة كما رأينا.

أما أمرُهُ صلى الله عليه وسلم بالحذر من الشيطان، فقد جاء تعليلا لما آل إليه أمر هذا اللعين من الهزيمة واليأس من عبادته، لكنَّ ذلك لم يجعله ييأس من الإفساد من خلال بعض الأعمال الحقيرة في نظر البعض، لذا جاء الجار والمجرور (على دينكم) مبينًا خطورة التهاون في هذه الأمور، إذ أنها تتعلق بأمر الدين. وفي تخير الفعل (احذر) دون غيره ما يفيد أهمية اليقظة الدائمة من مداخل هذا اللعين.

وأما الأمر بالوصية بالنساء، فهو دعوة إلى الرفق بهن، كما قال العكبري، فَاسْتَوْصُوا أي: اقْبَلُوا وصيتي، وعلى هَذَا ففِي نصب "خيرًا " وَجْهَان: أَحدهمَا: هُوَ مفعول اسْتَوْصُوا؛ لِأَن الْمَعْنى: افعلوا بِهن خيرًا. وَالثَّانِي: مَعْنَاهُ اقْبَلُوا وصيتي وَأتوا فِي

ذَلِك خيرًا، فَهُوَ مَنْصُوب بِفعل مَحْذُوف كَقَوْلِه تَعَالَى: {وَلَا تَقولُوا ثَلَاثَة انْتَهوا خيرا لكم} أي انْتَهوا عَن ذَلِك وائتوا خيرًا.[28]

ويأتي هذا الأمر من النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء نظرًا لما كابدته المرأة في الجاهلية من ظلم، وما قد بقي من آثاره في نظرة المجتمع المسلم إليها.

ثانيًا: الجملة الفعلية المؤكدة

يأتي توكيد الجملة في المرحلة التالية بعد إثباتها، ويمثلان معا ضدًا قويًا أمام نفيها، ولا يقع ذلك إلا في الأساليب الخبرية التي تحتمل الصدق أوالكذب. ويلجأ المخاطِب إلى التوكيد إما لتقوية الكلام لدى المخاطَب فيصير أكثر تقبلاً له واقتناعًا به في مواجهة ما قد يساوره من شكوك أو ما يطرأ عليه من تردد، وإمَّا " لإزالة ما علق بنفس المخاطَب من شكوك وإماطة ما خالجه من شبهات"[29] تجاه مضمون الكلام.

وقد أولى علماء البلاغة العربية جل عنايتهم لهذه الناحية في مباحث التوكيد، وربطوا بين حال المخاطب والكلام الموجه إليه: فيرون أن الكلام يرسل متجردًا من التوكيد في جانب المخاطب خالي الذهن، ولا يلجأ المخاطِب إلى التوكيد إلا بعد أن يَثبت له تردد المخاطَب أو شكوكه في مضمون الكلام، وفي مرحلة تالية إنكاره له، عند هذا المقام يلجأ المخاطِب إلى تقويه كلامه بأكثر من أداة توكيدية. "ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائيًا والثاني طلبيًا والثالث إنكاريًا، وإخراج الكلام على هذه الوجوه إخراجًا على مقتضى الظاهر، وكثيرًا ما يخرج على خلافه فينزل غير السائل منزلة السائل إذا قُدِّم إليه ما يلوح له بحكم الخبر فيستشرف له استشراف المتردد الطالب .... وينزل غير المنكر منزلة المنكر إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار."[30]

وقد جاء التوكيد في الجملة الفعلية في خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم على الأشكال الآتية:

1ـ قَدْ + جملة فعلية.

2ـ التوكـــيد بالقصر.

3ـ الأمر، لام الأمر، نون التوكيد.

4ـ جملة فعلية + مفعول مطلق/ أبدًا.

الشكل الأول: قَدْ + جملة فعلية

تختص (قد) بدخولها على الفعل، ولا تغيره عن حاله التي كان عليها، ولا يفصل بينها وبين الفعل فاصلٌ. وتدخل على الماضي بشرط أن يكون متصرفًا، وعلى المضارع بشرط تجرده من جازم وناصب وحرف تنفيس، وهي حرف تحقيق إذا دخلت على الماضي، وتقريب للماضي من الحال، وحرف توقع إذا دخلت على المستقبل.[31] وزيادة في تقوية التوكيد تسبق (قد) بلام الابتداء، والتي تزيد في معنى التحقيق لتصل إلى معنى اليقين.[23]

ويمكن تلمس معنى التحقيق والتقريب في قوله صلى الله عليه وسلم: "وقد بلغت"، وقوله: " وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا." بما يفيد أداءه لمهمته صلى الله عليه وسلم، وانتفاء الأعذار عن المخالفين. وفي معنى التقريب يقول ابن يعيش: " قد حرف معناه التقريب، وذلك أنك تقول: قام زيد، فتخبر بقيامه فيما مضى من الزمن، إلا أن ذلك قد يكون بعيدًا، وقد يكون قريبًا من الزمان الذي أنت فيه، فإذا قربته بـ(قد)، فقد قربته مما أنت فيه، ولذلك قال المؤذن: قد قامت الصلاة، أي حان وقتها في هذا الزمان. "[33]

ولا تخرج (قد)عن معاني التحقيق الذي يزيد من قوة المعاني خاصة إذا وجدت عناصر أخرى للتقوية كما في الجمل الآتية: " إن الشيطان قد يئس(من) أن يعبد بأرضكم هذه أبداً"، و "إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم."، و "وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض."، و" فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع.".

الشكل الثاني: التوكيد بالقصر

القصر درجة عالية من درجات التوكيد، تستلزم مراعاة أحوال عناصر الخطاب: المتكلم والمخاطَب والمقام، وينتج عن ذلك بنية معدلة عن البنية الأساسية المفترضة في الإخبار. ومن ثم فلابد أن تشترك عناصر داخلية، وأخرى خارجية في إنتاج هذه البنية.[34]

ولم ترد في الخطبة الشريفة إلا جملة واحدة تمثل هذه البنية وهي قوله صلى الله عليه وسلم:"لا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه على طيب نفس منه." وقد توافرت من العناصر الداخلية في هذه البنية أداتان: الأولي: تصدرت الجملة وهي أداة النفي (لَا) التي دخلت على الفعل المضارع فأفادت نفيه نفيًا مطلقًا وهو ما ذهب إليه بعض النحاة

والباحثين من القدماء والمحدثين، إلا إذا وجد في الجملة ما يقيده أو يوجهه.[35] والثانية: أداة الاستثناء (إلّا) التي قامت بنقض ما أحدثته الأداة (لا) من نفي. وبقليل من التأمل في الجملة النبوية التي مثلت هذه البنية نستطيع القول إنّ النفي هنا للحال والاستقبال، فالتشريع النبوي لا ينصرف إلى ما مضى، وإلا لو كان معلومًا ما أكده المتكلم لجمهور المخاطبين.

وقد وقع الخطاب على المخاطبين موقع المنكرين له إما لحداثة عهد بعضهم بالإسلام، وإما للتشديد وزيادة التوكيد. وتلك هي العناصر الخارجية التي رُوعيت في هذه البنية من قبل المتكلم صلى الله عليه وسلم." ويقع ذلك المعنى دفعة واحدة، أي النفي الذي يقع بصدارة حرف النفي يُنقض بحرف الاستثناء المتأخر؛ فيتكون التخصيص، ولا يتصور وقوع نفي منفصل ثم إخراج من النفي."[36]

وقد وقع النفي على الفعل (يَحِلُ) دون أن يذكر الفاعل، وفي ذلك إطلاق النفي لكل شيء يمتلكه المرء يمكن أن يؤول إلى آخر، لكن البيان النبوي المعجز يأتي بكلمة (أخيهِ) بما توحيه في نفس المتلقي بمدلولاتها الإسلامية من حرص ومودة ورحمة تأبى التنزه عن أن تمتد عينه بَلْهَ يداه إلى ما بحوزة أخيه. ثم يأتي نفض النفي ليترك الباب مشرعًا في الإعطاء والتملك ما دام عن طيب نفس، وقد أدى الاسم الموصول الذي أعقب أداة الاستثناء(إلا) دورًا كبيرًا بما يفيده من الإطلاق في أداء هذا المعنى. وجاء الجار والمجرور وما أعقبه (على طيب نفس منه) ليحترز بهذا الحكم عن الإعطاء الناتج عن وسائل الإكراه أو تحت ممارسة الضغوط.

الشكل الثالث: الأمر، لام الأمر، نون التوكيد

من أشكال التوكيد في الجملة العربية تصدرها بفعل الأمر، أو بالفعل المضارع المسبوق بلام الأمر، أو بنون التوكيد التي تلحق الفعل المضارع.

"فالأمر فيه معنى التوكيد، إذ يخرج فيه التركيب عن الإخبار إلى الطلب."[37]

ولولا أن المعني الذي تحمله جملة الأمر له من العناية والاهتمام عند المرسل ــ ما تحوّل بها من حال الإخبار إلى حال الطلب بالأمر الذي أفاض البلاغيون في أغراضه. وذلك وفق محددات السياق وأحوال المتلقي. وقد تعرضنا لهذه الجمل عند الحديث عن الجملة الفعلية ذات الفعل الأمر.

أما لام الأمر فإنها تختص بالفعل المضارع لتعطي معنى الأمر الذي يفيد التوكيد، يقول الزجاجي: " لام الأمر جازمة للفعل المستقبل للمأمور الغائب كذلك أصل دخولها... فأما إذا أمرت مخاطَبًا، فإنك غير محتاج إلى اللام، كقولك: اذهب يا زيد ... وربما أدخلت اللام في هذا الفعل أيضًا توكيدًا، فقيل لتذهب يا زيد."[38]

وقد جاءت جملة واحدة ورد بها هذا النوع من التوكيد في خطبته صلى الله عليه وسلم في سياق أسلوب الشرط الجازم، هي قوله صلى الله عليه وسلم: " فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها "[39] وفي هذا التوكيد الذي سُبِق بالفاء الواقعة في جواب الشرط ما فيه من إلزام على وجهة السرعة بأداء ما أؤتمن عليه كل مَعْنِي بهذا الخطاب النبويّ، وفي هذا الإلزام ما فيه من شيوع هذا السلوك الحضاري بين الناس من رقي يمتزج بالأمن والأمان، يطبع المجتمع بالمثالية والقيم الفاضلة.

ومما يلحق الفعل المضارع ليفيد التوكيد نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة. ولم تأتِ هذه الأداة إلا في جملتين اثنتين في الفقرة الأخيرة من الخطبة هي قوله صلى الله عليه وسلم: " أيها الناس: تعلّمنّ أن كل مسلم أخ للمسلم." فهذا مع ما سبقها من نداء لجذب الانتباه تأكيد على مبدأ الأخوة وفق التصور الإسلامي، وقوله صلى الله عليه وسلم "... فلاتظلمنّ أنفسكم". تشديد على عدم إلحاق الظلم بالنفس.

الشكل الرابع: جملة فعلية + مفعول مطلق / أبدًا

يأتي المفعول المطلق وسيلة من وسائل التوكيد في الجملة الفعلية، وقد حدد سيبويه سبب مجيئه في الجملة يقوله: "وإنما يجيء ذلك على أن تبين أيّ فعل فعلت أو توكيد." [40] ويؤكد ابن عصفور على هذه الوظيفة بقوله:" التوكيد لفظ به تمكين المعنى في النفس، (وهو التوكيد اللفظي)، أو إزالة الشك عن الحديث (وهو التأكيد بالمصدر وبه يرتفع المجاز)." [41]

ولم يحظَ ورود الجمل المؤكدة بالمفعول المطلق في الخطبة بالكثرة، إذ لم ترد إلا جملة واحدة وهي قوله صلى الله عليه وسلم: "... فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح."، وقد جاءت الجملة معطوفة على جملة سابقة عليها ،ووقعت الجملتان في نطاق جملة مؤكدة بحرفي التوكيد: إنّ، وقدْ. ولو أن الضرب للنساء في هذا الحكم كان على إطلاقة ما احتاج الأمر من المتكلم أن يؤكده على هذا النحو، وأن يُتبعه بما يقيده ويحدده؛ فجاء بالصفة المضافة (غير مبرح). إذن فالأمر مقيد بالسبب، ومقيد كذلك بالكيفية.

ومن التوكيد الذي يلحق الجملة الفعلية لفظة (أبدًا)، وقد وردت في قوله صلى الله عليه وسلم في بداية خطبته:"اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبدًا"، وفي الفقرة الثانية من الخطبة في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا."والأَبدُ : الدهر ، والجمع آباد وأُبود ؛ وفي حديث الحج ، قال سراقة بن مالك: أرأيت مُتْعَتَنَا هذه ألِعامنا أم للأبد ؟ فقال: بل

هي للأبد ، وفي رواية : أَلِعامنا هذا أم لأَبَدٍ؟ فقال: بل لأَبَدِ أَبَدٍ.وفي أُخرى: بل لأَبَدِ الأَبَد أي هي لآخر الدهر. وأَبَدُ أَبيد :كقولهم دهر دَهير.[42]

وقد أشار المعجم الوسيط إلى الموقع الوظيفي للكلمة حين قال إنها : ظرف زمان للمستقبل، يستعمل مع الإثبات والنفي، و يدُل على الاستمرار. نحو: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً}. وقد يُقيَّد هذا الاستمرار بقرينة، نحو: {إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً ما دَامُوا فِيهَا}.[43]

فأما عن الموقع الأول فقد جاءت الكلمة في نهاية الجملة التي لم تكن بمفردها من العناصر التي تقوّي من مضمونها، وتصعد بها درجات أعلى في سلم التوكيد إذ صُدِّرت الجملة بالنداء جذبًا للانتباه (أيها الناس)، ثم بالأمر(اسمعوا)، ثم بحرف التوكيد (إنّي)، لقد تطلب المقام بكل عناصره اللغوية والاجتماعية ووعي المتكلم صلى الله عليه وسلم بهذا كله ــ جلب كل هذه العناصر المقوية لمضمون الكلام، والممهدة لأهمية من سَيُقَال بعده مما يستوجب حضور السمع والعقل. فكأنها ــ وهي بالفعل كذلك ــ وصايا مودع صلى الله عليه وسلم.

وأما عن الموقع الثاني فلم تكن اللفظة كذلك بمفردها في التركيب، بل سبقتها صدارةً أداة التوكيد والنسخ (إنَّ) وتوسط ركني معموليها حرف التحقيق (قَدْ) قبل الفعل (يَئِسَ)، وما كان للمتكلم أن يحشد كل هذه العناصر التي فعلت أفاعيلها في التركيب إلا للقيمة التي يمثلها المضمون الذي تعبر عنه هذه الجملة. إنها تعبر عن انقطاع الأمل لدى عدو المخاطبين (الشيطان) في إخضاعهم له بالعبادة حتى قيام الساعة. وهذا المعنى ــ لاريب ــ يعطى دَفعة للمخاطبين وثقة في النفس تنبئ عن قوة شكيمتهم العقديَّة وصلابة مراسهم الإيماني، لكن ذلك ربما يدفعهم إلى الدعة والركون لذا جاء التحذير النبوي مباشرة: "ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم."

ثالثًا: الجملة الفعلية المنفية

يتحقق النفي في الجملة الفعلية بدخول مجموعة من الأدوات على عنصرها الأول الفعل، بعض هذه الأدوات له تأثير إعرابي على هذا الفعل مثل (لمْ، لمَّا، لنْ)، والآخر ليس له ذلك التأثير مثل(لا، ما). كما أن منها ما يختص بزمن دون آخر، ومنها ما لا يختص بزمن بعينه. ولما كان الإيجاب إثباتًا للعلاقة الأساسية بين ركني الجملة الفعلية؛ فالنفي إزالة أو دفع لهذه العلاقة، وعلى حسب الإيجاب يكون النفي.[44]

ولم تُوظَّف للنفي في جمل الخطبة إلا أداتان هما: لا، لن. حيث كان النصيب الأكبر من الجمل المنفية للأداة الأولي في حين أن جملة واحدة كانت من نصيب (لن).

ويفيد دخول (لا) على الفعل المضارع النفي في المستقبل، يُفهم هذا من كلام سيبويه إذ يقول:" وإذا قال هو يفعل، ولم يكن الفعل واقعًا، فنفيه لا يفعل، وإذا قال: ليفعلنَّ، فنفيه: لا يفعل." [45] ومن النحاة من يرى أن ذلك غير لازم، يقول المرادي: " ذهب الأخفش والمبرد وتبعهما ابن مالك إلى أن ذلك غير لازم، بل قد يكون النفي بها للحال." [46] وعلى هذا فالنفي بـ(لا) صالح للحال والاستقبال معا، مع الدلالة على التوكيد، إلا إذا ورد في الجملة ما يفيد تقييد الزمن أو يوجهه. [47] ويمكن القول إن المقام هو المسؤول عن تحديد معنى النفي الذي يصيب الجمل، وهو ما يمكن أن نستشفه في قراءتنا للجمل النبوية وتحليلها.

ففي قوله صلى الله عليه وسلم: " اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا."وقع النفي على فعلين الأول يفيد النفي في الحال، فالرسول صلى الله عليه وسلم ينفي أنه يدرى الآن هل سيلقى المخاطبين بعد هذا العام؟ وهذا النفي لا ينسحب على المستقبل فالوحي لم ينقطع بعد، وقد يأتيه جبريل بخبر ذلك. أما الفعل الثاني فينسحب على المستقبل فقط دون الحال وقد وجَّه هذا المعنى وجود شبه الجملة" بعد عامي هذا".أما بقية الجمل وهي أقواله صلى الله عليه وسلم: "لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون."، و" لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه."، و"وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة" ، و "...إنهن عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً."، و"...لا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه على طيب نفس.". فالنفي هنا للأمرين معا: الحال والاستقبال؛ إذ المقام مقام تشريع يخص المجتمع ومعاملاته. وهو ما لا يعتريه التغير، ولا ينسحب على الماضي.

ومن الجملة الفعلية المنفية في الخطبة الشريفة جملٌ تصدرتها أداة النفي (لنْ). وقد اختلف النحاة في معانيها، فمنهم من خصها للدلالة على النفي في المستقبل، يفهم هذا من كلام سيبويه التالي: "... وإذا قال سوف يفعل فإن نفيه: لن يفعل." 48، ويؤيد ذلك الزمخشري بقوله :" لاولن أختان في نفي المستقبل." 49 ثم يضيف: "إلا أن في لنْ توكيداً وتشديداً." [50]، أما المالقيفيرى أن (لنْ) لا تدل على الاستقبال فقط، بل تحتمل الحال والاستقبال. [51]ويستفاد من مجموع هذه الآراء أن (لنْ) تفيد النفي في الحال والاستقبال، وتوكيد هذا النفي.

ولم ترد (لنْ) إلا في جملة واحدة، هي قوله صلى الله عليه وسلم: " وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا: أمراً بيناً كتاب الله وسنة نبيه"، ففضلا عن الأثر اللفظي الذي أحدثته أداة النفي في الفعل المضارع بحذف النون التي تميز

الأفعال الخمسة من غيرها في الإعراب، فإنها قامت بنفي الضلالة عن المتلقين شرط الاعتصام بالكتاب والسنة. ولا خلاف أن النفي هنا للحال والاستقبال معا، ومما يقوي هذا النفي ويؤكده ظرف الزمان (أبدا).

وبعد فقد كانت هذه القراءة التركيبية الدلالية لبعض الجمل التي وردت في خطبة حجة الوداع، وقفنا فيها على أشكال الجملة الفعلية في حالاتها الثلاث: الإثبات والتأكيد والنفي، وحاولنا استجلاء بعض النكات الدلالية في التراكيب النبوية ومكوناتها التي تنم عن إعجاز بياني لا يغور نبعه.والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الهوامش

1 -ابن هشام (محمد بن عبد الملك بن هشام ت 183)، السيرة النبوية، تحقيق: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا ،ط1 (1416 ــ 1995م)، 4/ 297، 298.

2 -انظر: سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر.ت180): الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت(د.ت)، 2/126.

3 -ينظر: سيبويه: الكتاب، 1/33. وابن عقيل(عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري. ت769): شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة (1400ه ــ 1980) 2/146.

4 -سيبويه: الكتاب، 1/34.

5 -انظر: ابن مالك (محمد بن مالك. ت672هـ): شرح التسهيل، تحقيق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر(1410هـ/1990م)، 2/148.

6-بدر بن على العبد القادر: المحسن البديعي وأثره الإقناعي في الخطاب الجاهلي ــ دراسة نصية، في مجلة: جذور، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ع 41 (ذو القعدة 1436هـ ــ سبتمبر 2015م) ص145.

7-الباقولي (علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن نور الدين جامع العلوم الأَصْفهاني، ت 543هـ): إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق ودراسة: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري ودار الكتب اللبنانية، القاهرة ــ بيروت، ط4 (1420هـ) 2/478ــ 479. ود. طاهر سليمان حمودة: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية، الإسكندرية (1998م) ص228.

8 -انظر : د. سعيد حسن بحيري: دراسات لغوية تطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1(1426هـ - 2005م) ص 123ـ 125. والأزهر الزنّاد: نسيج النص (بحث فيما يكون به الملفوظ نصًا)، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط 1(1993)153ــ 136.

9-عباس حسن: النحو الوافي، دار المعارف ط3 (1974م)، 2/180.

10- انظر: محمد فؤاد عبدالباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية / دار الحديث ، القاهرة (1945) ص522.

11-كلاوس برينكر: التحليل اللغوي للنص ـ مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمهُ وعلق عليه ومهّد له: د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1(1425هـ / 2005م) ص 138.

12-الرضي (رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي. ت 688): شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: د. يحيى بشير مصري، القسم الثاني ـ المجلد الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ط1 (1417هـ -1996م) 178-179.

13 -د. سعيد بحيري: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، ص127.

14- المرادي (الحسن بن قاسم المرادي ت 749): الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوه ومحمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2 (1403/ 1983) ص292.

15-اتظر: عباس حسن: النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، ط3 (1974م) 1/ 686ـ687.

16- انظر: ابن هشام (جمال الدين ابن هشام ت 761ه): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط5(1979م).139/1. والمرادي (الحسن بن قاسم المرادي ت 749): الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوه ومحمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2 (1403/ 1983).ص 38.

17 -انظر: النووي(محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، ت 676هـ): المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ـ شرح النووي على مسلم،دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2(1392) 183/8. وعبيد الله الرحماني المباركفوري: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء ـ الجامعة السلفية ــ بنارس، الهند، ط3(1404 هـ ــ 1984 م) 9/ 24

18 -انظر في مفهومي السبك والحبك: روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1 (1998) ص1.3. ود. سعد مصلوح: نحو أجرومية للنص الشعري، في مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج 10 ع 1،2 يوليو أغسطس (1991)ص145. وسعيد حسن البحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر،لونجمان،ط1998،1 ص 122 وما بعدها. و د. أحمد عفيفي: نحو النص، مكتبة زهراء الشرق، ط1(2001) ص90.

19- النووي: شرح النووي على مسلم، 183/8.

20 -المباركفوري: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، 9/ 24

21-انظر في ذلك: ابن يعيش (موفق الدين أبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي، ت643): شرح المفصل، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1 (1422هـ ـ 2001م) 200/1. ود. سعيد بحيري: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، ص 78.

22-النووي: شرح النووي على مسلم، 183/8-182.

23-مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم، 87/1.

24-انظر: د عبدالله الهتاري: تحولات الأفعال في السياق القرآني وأثرها البلاغي، في: https://vb.tafsir.net/tafsir11092/#.WVpVqFXyuAY

25 -انظر: د. مجدي مصطفى ياقوت: السين وسوف في القرآن الكريم، في: مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، ع 186، (ديسمبر 2015) ص 196.

26- د. طه محمد الجندي: المصدر المؤول، بحث في التركيب والدلالة ،دار الثقافة العربية، القاهرة (1999)، ص 70 وما بعدها.

27- انظر ما جاء في معنى الفعل (عقل)في: مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مادة (عقل).

28-العكبري (أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين، ت 616هـ): إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث النبوي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: د. عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1(1420هـ - 1999م) ص141.

29 -د. سعيد بحيري: ظواهر تركيبية ، ص98.

30 -القزويني (جلال الدين القزويني ت739): الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، ط3(1413هـ/1993م) ص71،65.

31 -انظر: سيبويه: الكتاب، 114/3. والزمخشري: المفصل، ص316. والمرادي: الجنى الداني، ص254،255.

32 -انظر: د. سعيد بحيري: ظواهر تركيبية ، ص101.

33 -ابن يعيش: شرح المفصل، 147/8.

34 -انظر في ذلك: د. سعيد بحيري: ظواهر تركيبية، ص96.

35 -انظر في ذلك: المرادي: الجنى الداني، ص296. و الزجاجي(أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ت 340): حروف المعاني، تحقيق: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1 (1984م). ، ص8. ود. سعيد بحيري: ظواهر تركيبية، ص156،157. ود. خليل عمايره: أسلوبا النفي والاستفهام في العربية، ص103.

36- د. سعيد بحيري: ظواهر تركيبية، ص96.

37-د. سعيد بحيري: ظواهر تركيبية ، ص103.

38-الزجاجي: كتاب اللامات، تحقيق: د. مازن المبارك، دار صادر، بيروت، ط 2 (1412هـ/ 1992م) ص88.

39-سبق معالجتها عند الحديث عن الجملة الفعلية ذات الفعل المضارع.

40- سيبويه: الكتاب، 229/1.

41 -ابن عصفور(علي بن مؤمن ت 669): المقرب، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري. عبد الله الحبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط1 (1391هـ/ 1971م). 239،238/1.

42 -انظر: ابن منظور(محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعىالإفريقى، ت711هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 3 (1414 هـ)، مادة أبَدَ

43 -انظر: مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مادة: أبد.

44- انظر: ابن يعيش: شرح المفصل، 107/8. و د. سعيد بحيري: ظواهر تركيبية، ص146.

45-سيبويه: الكتاب، 117/3.

46-المرادي: الجنى الداني، ص296.وانظر: الزجاجي: كتاب حروف المعاني، ص8.

47-انظر : د. سعيد بحيري: ظواهر تركيبية، ص156،157.ود. خليل عمايره: أسلوبا النفي والاستفهام في العربية، ص103.

48-سيبويه: الكتاب ، 117/3

49-الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر. ت 538): الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، بيروت (د.ت.)248/1.

50-المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

51-انظر: المالقي (أحمد بن عبد النور المالقي.ت702هـ): رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق (د. ت)، ص355.